المحاضرة الأولى: الثورة الفرنسية وتأثيرها في التشكيل الفكري لأوروبا نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر

مما لا يختلف فيه بين الباحثين أن الثورة الفرنسية كانت محطة مركزية في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ذلك أنها قلبت الكيانات السياسية والفكرية في أوروبا بشكل كامل، وكانت منطلقا لمرحلة جديدة لا في تاريخ أوروبا فقط وإنما في تاريخ العالم ككل، هذا الأمر يجعل من التعرف عليها والإحاطة بتفاصيل تشكلها ثم توسعها محطة أساسية لكل دارس لتاريخ أوروبا، وهو الأمر الذي حملنا على جعلها مرتكزا محوريا في مقياس تاريخ أوروبا المعاصر، فما هي العوامل التي أثرت في حدوث هذه الثورة؟ وكيف تلقاها الشعب الفرنسي والشعوب الأوروبية؟ وهل تفاعلت معها الحكومات بطريقة إيجابية أم سلبية؟ وكيف أثرت في المسارات الكبرى في التاريخ الأوروبي المعاصر؟ هذه الأسئلة هي ما سنسعى الإجابة عليه ضمن هذه المحاضرة.

المبحث الأول: الأوضاع العامة لفرنسا قبل سنة ١٧٨٩

لا يمكن بأي حال فهم السياق العام الذي نشأة فيه الثورة الفرنسية وتأثيراتها في التاريخ المعاصر لأوروبا دون استيعاب الحاضنة التي احتضنت هذه الثورة أو دون فهم الوضع العام الذي كان يوجد في فرنسا وساعد في نجاح هذه الثورة على المستويين المبدئي والنهائي. لذا سنخصص ضمن هذه المحاضرة عناصر أساسية تعد هي أضلاع هذه المحاضرة، وفهمها سيعيننا على إعادة بناء المسار الذي عرفته الثورة الفرنسية في بدايتها، ثمَّ تطورها وإقرارها لمبادئها في نهاياتها. وهو الأمر الذي يجعل من معرفة الوضع العام في فرنسا باعتباره حاضنة الثورة ومنطلق التغير في أوربا أمرا ضروريا لا غنى عنه. وسنقسم هذا المبحث باعتبار أهمية عناصره إلى محاور أساسية هي: المحور الاقتصادي، المحور الفكري، المحور الاجتماعي وأخيرا المحور السياسي باعتباره يحمل تجليات هذه التغيرات.

1. **اقتصاديا**: الطبقية داخل المجتمع الفرنسي وتأثير زيادة الضرائب في تدهور الوضع الاقتصادي داخل فرنسا.

لقد أدت مجموعة من العوامل المتشابكة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر إلى تراجع اقتصادي كبير تجاوز أثره الوضع الداخلي لفرنسا إلى خارجها، وانعكس التراجع الاقتصادي لفرنسا على مختلف مناحي الحياة، الأمر الذي يجعل معرفة أسباب هذا التراجع الاقتصادي أمر بالغ الأهمية، ذلك أنه سيكون أحد العوامل الأساسية والمباشرة في الثورة التي تعرفها فرنسا نهاية هذا القرن وتحديدا سنة (١٧٨٩).

عانت فرنسا من مواسم جفاف متلاحقة بين سنوات (١٧٧٧-١٧٨٩) أدت إلى تراجع عام في الوضع الاقتصادي داخل فرنسا، حيث أدت هذه المواسم إلى تراجع ونقص حاد في الإنتاج الزراعي، أدى بدوره

د. نجم الدين سعيدي

إلى تناقص العرض، خاصة في مادة القمح؛ الأمر الذي انعكس بشكل مباشر على أسعار هذه المادة الحيوية، والمواد الأساسية الأخرى المرتبطة بها.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل زادت السياسية الحكومية التي اتبعها القصر الملكي الأوضاع سواء، وجعلت الطلب على مادة القمح يرتفع بشكل كبير، إذ في الوقت الذي كانت تعيش فيه فرنسا ما يشبه المجاعة داخليا، كانت عدد من الشركات الفرنسية تقوم باستيراد القمح لكن بدلا من ضخه في السوق الفرنسي، كانت تفضل بيعه للقصر الملكي والذي يقوم بدوره بإرساله إلى الجيوش الفرنسية التي ترابط في مختلف الأماكن داخل فرنسا وخارجها، ما جعل الأمر يتفاقم على المجتمع ولم تكن هذه هي نهاية هذا المسار، بل تجاوز الأمر المعقول عندما رضخت الحكومة الفرنسية للضغوطات التي كانت تمارسها طبقة التجار لأجل تحرير سعر القمح والمواد الأخرى، فجاء قانون تحرير الأسعار الذي أقرته الحكومة الفرنسية، ليكون بمثابة نكسة أخرى تحمل تبعاتها الشعب الفرنسي.

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه معظم الشعب الفرنسي لا يجد ما يسد به حاجته كانت فئة قليلة المستوردين وأصحاب الشركات تستفيد من هذا الوضع ويزداد ثراؤها؛ الأمر الذي زاد مِن حنق الطبقة العامة من الشعب الفرنسي على الوضع العام في البلاد.

لم تكن مشكلة الجفاف وارتفاع أسعار القمح وانعدامه في باريس المشكلة الوحيدة التي يعيشها الفرد الفرنسي، بل نجده يتحمل تبعات أخرى للفشل الاقتصادي المنتهجة من القصر الملكي وحكومة لويس الخامس عشر. ازداد الوضع الاقتصادي سواء بسبب سوء الانفاق العام الذي اعتمده القصر الملكي. حيث ازداد حجم القرض الملكي من الدائنين بشكل كبير جدا وهذا لسببين: الأوَّل محاولة القصر تغطية احتياجاته الداخلية المبالغ فيها. وثانيا الانخراط في عدد مِن الحروب خارج فرنسا التي لم تحمل أهمية استراتيجية بقدر ما كانت مرتبطة بنزوات شخصية. وعلى رأس الحروب التي استنزفت فعليا الخزينة الفرنسية، الحرب الفرنسية مع النمسا والمجر ما بين سنوات (١٧٤٠-١٧٤٨) ثمَّ الحروب الفرنسية ضد بريطانيا المعروفة تاريخية بحرب السبع سنوات ما بين (١٧٥٦-١٧٦٣) وانخراط فرنسا في حرب الاستقلال الأمريكية ضد التاج البريطاني ما بين (١٧٧٦-١٧٨٣).

بالإضافة لما سبق ذكره نقف على زيادة القصر لحجم الضرائب العامة على المجتمع الفرنسي في محاولة لإيفاء الدائنين فوائد ديونهم، وتسيير الميزانية العامة، وذلك أن القوانين الفرنسية والضغط الذي تمارسه طبقة النبلاء كانا يمنعان المشرع الفرنسي من إقرار أي قانون للضرائب يستهدف ثروة كبار الملاك.

فاذا فرغ مما سبق في جانب من الجوانب الاقتصادية ونقصد به الجانب الزراعي الذي كان يعد عصب الحياة اليومية، عدنا للحديث عن الجانب الآخر للاقتصاد، ونقصد به الجانب التجاري، الذي عرف بدوره تراجعا وتدهورا كبيرا لأسباب متعددة، لعل على رأس عدم وجود استقرار في الملاحة البحرية في المتوسط والأطلسي بسبب الحروب والتنافس الشديد بين الفرنسيين ونظرائهم البريطانيين، حيث ركزت البحرية

د. نصر الدين سعيدي

البريطانية التي كانت في أوج نشاطها على تعطيل وتقزيم أي نشاط بحري للفرنسيين سواء في المتوسط أو في الأطلسي. الأمر الذي انعكس بشكل مباشر على الوضع التجاري في المدن المركزية للتجارة البحرية الفرنسية وعلى رأسها مارسيليا، حيث تؤكد العديد من الدراسات إلى تراجع عائدات التجارة العامة في الجنوب الفرنسي وحدوث اضطرابات مختلفة بسبب الوضع غير المستقر مع بريطانيا، ما جعل التجار يراسلون القصر أكثر من مرة من أجل ضبط الأمور وتنظيمها. وقد أدى الوضع التجاري المتردي في مدن الجنوب الفرنسي إلى قيام الكثير من التجار بتسريح العمال من وظائفهم أو إلى تخفيض أجورهم بشكل كبير، ما أدى إلى أمرين أساسين في أوساط الشعب الفرنسي في الجنوب أولهما انتشار البطالة بشكل كبير وثانيهما تردي وضع الطبقة العاملة في فرنسا بشكل كبير. ويمكن سحب هذا الأمر على جل القطاعات الأخرى في فرنسا، حيث عانى الصيادون سواد منهم الموجودون في الشمال أو أولئك الموجودون في الجنوب من نقص مداخيلهم وتردي أوضاعهم؛ بسبب التضييقات التي كانوا يتعرَّضون لها مِن طرف البحرية البريطانية وحلفائها في بحر المانش وفي المتوسط. وقد استغلت فئة النبلاء وكبار التجار هذا الوضع لصالحهم بشكل كبير، بحيث استفادوا من انخفاض أجرة اليد العاملة، كما استفادوا بشكل مباشر من زيادة الأسعار، إلا أنَّهم في الوقت ذاته كانوا يدركون أن استمرار هذا الوضع سيرهن تجارتهم على المدى المتوسط بسبب ما سيؤول إليهم الأمر من انهيار القدرة الشرائية وعدم مقدرة الطبقة العاملة على مواصلة الطلب على المواد التي يعرضونها لهم.

إنَّ الوضع العام الذي سبق ذكره من ضمن تفاصيل عديدة –لم نستعرضها في هذه العجالة– جعلت المجتمع الفرنسي وبالأخص الطبقة العامة مستعدة للانخراط في أي مسعى للتغير، وتترقب بشكل مباشر أي فرصة للانقضاض على القصر الملكي والاقتصاص منه؛ باعتبار أنَّه المتسبب الرئيسي في الوضع الاقتصادي المتردي. وهو الأمر الذي سنقف فعلا على تبعاته في موقف الشعب مِن الثورة في أيامها الأولى ونظرته لها على امتداد عشر سنوات كما سيأتي.

2. فكريا:

يعد من المعيب الحديث عن الثورة الفرنسية وتأثيراتها اللاحقة في تشكل الفكر الأوربي المعاصر دون تتبع الأفكار التي أثرت في هذه الثورة في حد ذاتها، لكن قبل الحديث عن الأشخاص الذين أثروا فعلا في نشر الأفكار العامة لدى الطبقة المثقفة ثم عموم الشعب لابد من الإشارة أولا إلى مساهمة الطباعة في انتشار الحركية الصحفية في فرنسا خلال القرن السابع عشر وانفجار هذه الحركية خلال القرن الثامن عشر، حيث ظهرت العديد من الصحف الفرنسية المحترفة التي أصبحت تخوض في المسائل الثقافية، والسياسية، والفكرية، والاقتصادية. وشجعت على تناقل الأفكار، ومناقشتها، وانتشارها بشكل ،واضح. مثل صحيفة : (le *Mercure de France*) التي أنشأت سنة (١٦٧٢)

د. عزالدين سعيدي

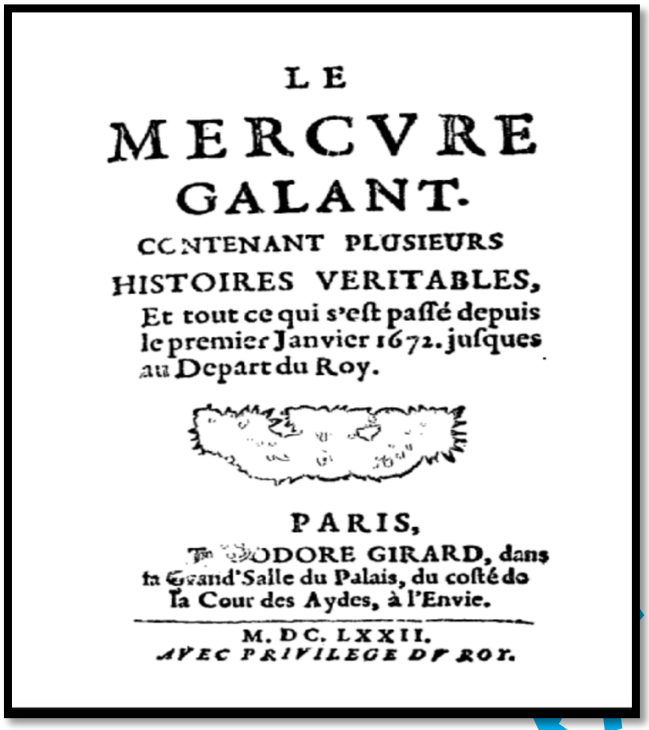

LE
MERCVRE
GALANT.
CONTENANT PLUSIEURS
HISTOIRES VERITABLES,
Et tout ce qui s'eſt paſſé depuis
le premier Janvier 1672. juſques
au Depart du Roy.

PARIS,
THEODORE GIRARD, dans
la Grand'Salle du Palais, du coſté de
la Cour des Aydes, à l'Envie.

M. DC. LXXII.
AVEC PRIVILEGE DV ROY.

حيث حملت بين دفتيها مناقشات ثقافية للقصائد الشعرية ثم فتحت بداية من سنة (١٧١٠) المجال لبعض القراء للمساهمة فيها، تم نشر ما مجمله (٤٨٨) مجلد منها ما بين عامي (١٦٧٢-١٧١٠) توقفت هذه السنة ثم أعيد بعثها من جديد بعد أربع سنوات تحت مُسمَّى (***Nouveau Mercure***) إلا أن القصر لم يسمح باستمرارها لمدة زمنية طويلة إذ قام بإغلاقها مرة أخرى.

استطاع عدد من المثقفين الليبراليين إعادة بعث المجلة وأطلقوا عليها مجلة (***Le Mercure du dix-neuvième siècle***) حيث عملت المجلة خلال المرحلة المتأخرة على التأكيد على أفكارها بنشر كل الأفكار المناهضة لسلطة الملكية والمدافعة عن قيم الجمهورية.

د. يزيد الدين سعيدي

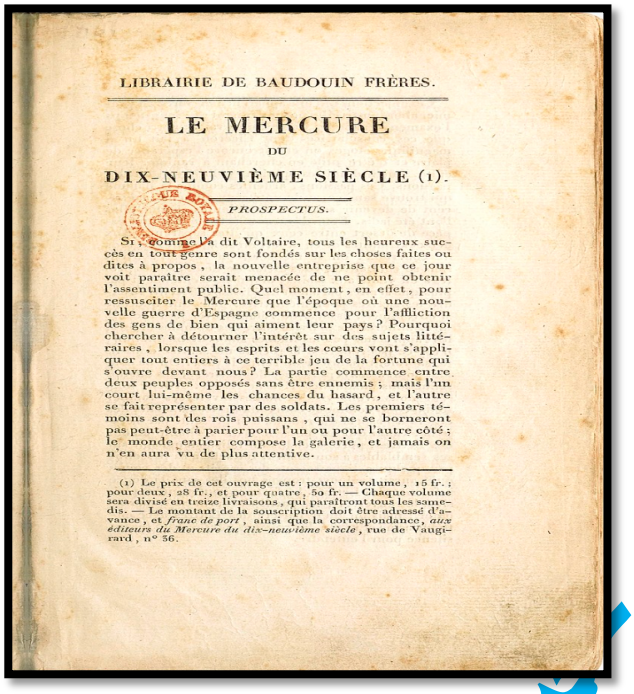

LIBRAIRIE DE BAUDOUIN FRÈRES.

LE MERCURE
DU
DIX-NEUVIÈME SIÈCLE (1).

PROSPECTUS.

Si, comme l'a dit Voltaire, tous les heureux succès en tout genre sont fondés sur les choses faites ou dites à propos, la nouvelle entreprise que ce jour voit paraître serait menacée de ne point obtenir l'assentiment public. Quel moment, en effet, pour ressusciter le Mercure que l'époque où une nouvelle guerre d'Espagne commence pour l'affliction des gens de bien qui aiment leur pays? Pourquoi chercher à détourner l'intérêt sur des sujets littéraires, lorsque les esprits et les cœurs vont s'appliquer tout entiers à ce terrible jeu de la fortune qui s'ouvre devant nous? La partie commence entre deux peuples opposés sans être ennemis; mais l'un court lui-même les chances du hasard, et l'autre se fait représenter par des soldats. Les premiers témoins sont des rois puissans, qui ne se borneront pas peut-être à parier pour l'un ou pour l'autre côté; le monde entier compose la galerie, et jamais on n'en aura vu de plus attentive.

(1) Le prix de cet ouvrage est : pour un volume, 15 fr.; pour deux, 28 fr., et pour quatre, 50 fr. — Chaque volume sera divisé en treize livraisons, qui paraîtront tous les samedis. — Le montant de la souscription doit être adressé d'avance, et *franc de port*, ainsi que la correspondance, *aux éditeurs du Mercure du dix-neuvième siècle*, rue de Vaugirard, n° 36.

كما نقف على صحيفة أخرى كان لها صدى كبير بين عموم الفرنسيين أنشأت سنة (١٧٧٧) باسم (***Le Journal de Paris***) جريدة فرنسا أو بريد فرنسا (***Poste de Paris***) من طرف الثلاثي (**Antoine-Alexis Cadet de Vaux, Jean Romilly, Olivier de Corancez**) كأول يومية فرنسية، اهتمت بالنقاشات الأدبية والفكرية والسياسية، حققت نجاحا كبيرا في فرنسا حتى بلغت أعداد السحب منها (١٢٠٠٠) نسخة يوميا. وكانت من أهم الصحف الفرنسية أثناء الثورة بما كانت تبثه وتنشره من أخبار نجاح الثورة وأفكارها.

د. نور الدين سعيدي

NUMÉRO 226. 917

JOURNAL DE PARIS.

Samedi 14 AOUT 1779, *de la Lune le* 4.

Le SOLEIL se leve à 4 heures 47 min. & se couche à 7 heures 12 minut.
La LUNE se leve à 7 heur. 43 min. du mat., & se couche à 8 heur. 57 min. du soir.
Rapport du Tems vrai au Tems moyen. Au midi du Soleil, la pendule doit marq. 0 h. 4 m. 18 f.
Hauteur de la Riviere. Le 12 à 2 p. 8 pouc. & le 13 à 3 p. 6 pouc.
Reverberes. Allumés à 8 heur. 10 m. éteints à 3 heur. 0 min.

Observations Météorologiques, faites

Époques du jour.	Thermomètre.	Baromètre.	Vent.	Etat du Ciel.
A 7 h. du mat.	15 au-dessus de 0	28 pouc. 2 lig.	N. N. O.	Couvert.
A midi	19 au-dessus de 0	28 2	N.	Clair.
A 5 h. du soir. .	21 au-dessus de 0	28 2	N. N. O.	Clair.

BELLES-LETTRES.

L'IMPATIENT, Comédie en un Acte & en vers libres, représentée pour la premiere fois par les Comédiens François le 3 Septembre 1778. (par M. *de Lantier*). A Paris, chez *Desaint junior*, Libraire, Quai des Augustins; in-8°. de 56 pag.

Le caractere peint dans cette Piece est très-comique en lui-même, & l'Auteur a eu l'art de le représenter dans des situations propres à le faire ressortir. *Damon* est le plus impatient des hommes: il est amoureux de *Julie*; il voudroit l'épouser sur le champ; mais *Julie*, quoique veuve, ne veut point se remarier sans l'aveu de son pere, M. *de Borchamp*, & ce M. *de Borchamp* est prévenu contre l'impétuosité de *Damon*. Cependant celui-ci est assez heureux pour être à portée de lui rendre service. M. *de Borchamp* a un procès important, & l'oncle de *Damon*, qui est Président, est lié avec le Rapporteur de ce procès. Pour être au fait de l'affaire, & pouvoir la recommander, il faut que *Damon* efface tous les détails que ce vieux plaideur se plaît à lui faire: voilà la premiere épreuve où l'on met son impatience, & cette situation produit des traits excellens. *Borchamp* commence par faire le portrait du Baron dont la mort a occasionné le procès qui le tourmente. *De ses récits*, dit-il, *il m'excédoit souvent*:

Mais je les supportois en ami complaisant.

DAMON.

Quoi! vous le supportiez! Ah! Monsieur, quel courage!

Après d'autres détails, *Damon* promet de le présenter à l'instant chez son oncle & d'attendre qu'il ait été chercher des papiers nécessaires; mais pendant ce tems-là, l'impatience le reprend; il appelle tous ses Laquais:

DAMON.

Je perds,
Que pour me secourir, Valets, Maîtresse, Amis,
Tout ait ici d'intelligence:
Mon éternel Beau-pere, ou bien s'est endormi,
Ou l'âge éteignant sa mémoire,
Il oublie à coup sûr que je l'attens ici.
Mais Flamand! mais Lafleur! on ne pourra le croire.
Je sers d'exemple à la postérité.
Lisons. Ciel! & Borchamp! où s'est-il arrêté?
Oh! pour finir, enfin, je vais chez mon Notaire.

Il s'échappe; *Borchamp* revient, il est tout surpris de ce le plus trouver, & se met contre lui dans une colere affreuse.

Dans une autre Scene, l'Impatient écrit une Lettre à son Oncle pour le même procès, & il passe ou estropie la moitié des mots. L'Oncle

كما نقف على صحيفة مهمة جدا أيضا في الحياة الصحفية والفكرية في فرنسا قبيل الثورة وأرخت بشكل مفصل لما كان يحدث ضمن الجمنعية الوطنية وهي مجلة (***Le Moniteur***) التي تأسست سنة (١٧٨٩) وجعلت من نفسها الناطق العام باسم الجمعية الوطنية الفرنسية. وقامت بنشر جل محاضر الجمعية العامة لاحقا.

؟ نيف سعيدي

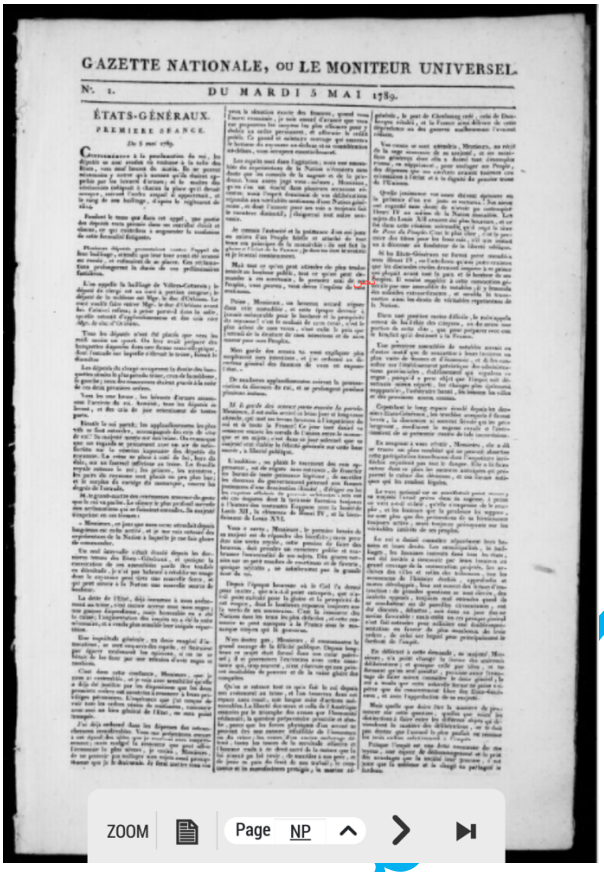
GAZETTE NATIONALE, ou LE MONITEUR UNIVERSEL.

N°. 1. DU MARDI 5 MAI 1789.

ÉTATS-GÉNÉRAUX.

PREMIÈRE SÉANCE.

ZOOM Page NP

إن وجود الصحافة المكتوبة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر كان عاملا محوريا ومركزيا في انتشار الأفكار التي مهدت لصقل فلسفة الثورة الفرنسية التي ستؤثر على الفكر الأوربي المعاصر بشكل كبير، ولعل على رأس الأفكار التي نلقى صدها في كتابات المثقفين الفرنسيين والصحافة الفرنسية قبيل أحداث الثورة الفرنسية سنة (١٧٨٩) ضمن ما أشرنا إليه انفا من الصحف أو غيرها من نشريات وكتب ما أحدثته كتابات "فولتير" مِن نقاش في الوسط الثقافي الفرنسي، خاصة مسألة نقده الشديد لسلطة الكنيسة ورجال الدين باعتبارهم مقيدين وحاجزاً يقف أمام أي إبداع محتمل. فانتقد فولتر بداية السلطة المطلقة لرجال الدين على الحياة العامة، ورأى أنَّها تتصادم مع ما كان يأمله مِن حرية يجب أن تكون للفكر والمعتقد، ولهذا ضمَّن كتاباته الكثير من السخرية مِن الممارسات الدينية لرجال الكنيسة. كما دعا فولتير إلى ممارسة الفكر النقدي بعيدا عن السلطة الأبوية التي تفرضها الكنيسة على العقل، ودعا للاعتماد على العقل في تفسير الظواهر الطبيعية المعقدة. الأمر الذي انعكس فعلا في كتابات الكثير من الفرنسيين الذين أتوا بعده زمنيا قبيل الثورة من أمثال: مونتسكيو وجون جاك روسو.

ولا يصح الحديث عن المفكرين الذين رسموا المسار الفكري للثورة الفرنسية دون الحديث عن جون جاك روسو وكتابه "العقد الاجتماعي" حيث تحدث روسو في كتابه عن فكرة جديدة لم يسبق مناقشتها وهي كون زن مصدر السلطات لابد أن يكون الشعب، وأن الحاكم لابد زن يكون خاضعا لسلطة واختيار الشعب وراعيا لمصالحه وليس العكس. بمعنى أن صاحب السيادة الفعلية هو الشعب، لذا هاجم جون

جاك روسو السلطة المطلقة للملك ورأى أنه شر لابد من الوقوف ضده، بل ودعا إلي تشييد جمهورية على أنقاض النظام الملكي يكون فيها الملك مجرد وسيط يقوم بالحكم لصالح ما يختاره الشعب، كما دعا في كتابه إلى ضرورة وجود عقد اجتماعي بين الحاكم والمحكوم ينتهي إلى وجود مساواة وعدالة كاملة تسير أمور الدولة. وهو ما يبرر رفضه التام للامتيازات التي تتحصل عليها طبقات وفئات –الطبقة الأرستقراطية: النبلاء ورجال الدين– معينة داخل المجتمع لا يستفيد منها جميع الأطراف. لذا رأى أن المساوة هي مدخل الحرية والأخيرة هي التي من شأنها بناد دولة العدالة.

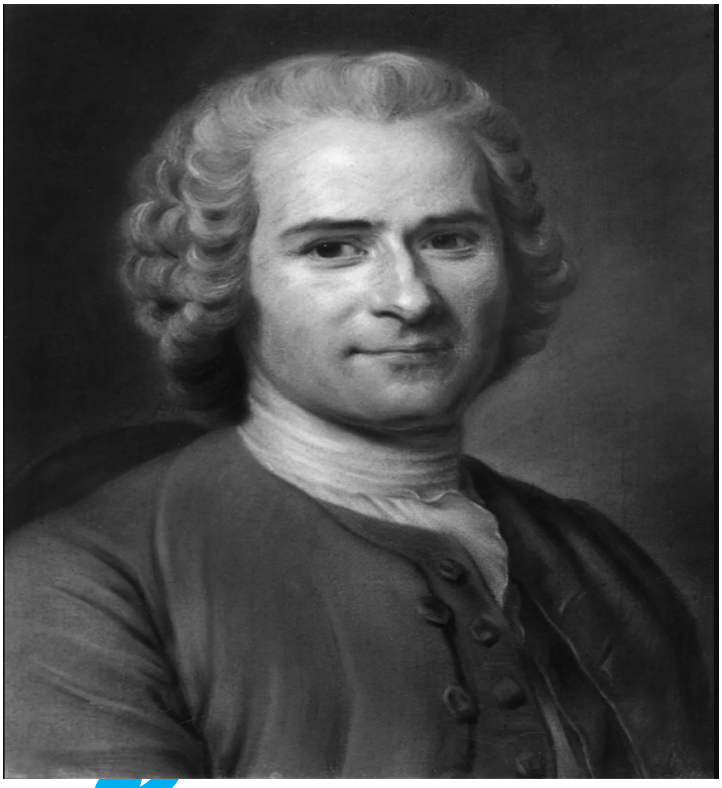

لقد ألهمت أفكار روسو التي كانت حينها متطرفة العديد من الكتاب والشعراء والمثقفين والقليل من أفراد البرجوازية أو النبلاء الجدد، لأنهم رأوا في بعضها ملاذا يمكنهم من الوصول إلي السلطة والقفز إلى مستوى جديد لا تتيح لهم امتيازاتهم السابقة. كما ألهمت أفكار "روسو" العديد من الثوار الفرنسيين وجعلتهم أكثر شجاعة في مطالبهم كما سيأتي.

إن المتتبع لأدوار عدد من الأفكار التي بثها عدد من المفكرين الفرنسيين بداية من منتصف القرن السابع عشر وإلى غاية ثمانينات القرن الثامن عشر سيلاحظ دون شك الحضور القوي لأفكار التنوير من جهة وأفكار المثقفين الفرنسيين المتأخرين من جهة ثانية، وسيعي أيضا أن حضور الصحافة قد ساهم بشكل كبير ومباشر في تبني الطبقة المتوسطة من التجار والبرجوازيين الجدد لعدد من الأفكار الثورية لأنها كانت تتقاطع بشكل مباشر مع أحلامهم وطموحاتهم في تسير شؤون الدولة الجديدة.

3. اجتماعيا:

لقد كان من تبعات الوضع الاقتصادي المتأزم في فرنسا أن انسحبت جل مشاكله على الجوانب الاجتماعية المختلفة، ويتجلى الوضع العام المتردي للجانب الاجتماعي في فرنسا في تلك الطبقية المستشرية في المجتمع الفرنسي، حيث يمكن الحديث عن تقسيم المجتمع إلى ثلاث طبقات رئيسية تشكل عماد المجتمع، وتتوزع الثروة بينها بشكل متفاوت بشكل شديد وهي كالتالي: طبقة النبلاء طبقة رجال الدين وعامة الشعب.

ويمكن تقسيم الطبقات الثلاث السابق ذكرها بالشكل التالي:

أ. طبقة النبلاء:

ومثَّلت ما لا يتجاوز ٠.٥٪ مِن الشعب الفرنسي، وهي الفئة التي تستحوذ على أكثر مِن ٩٥٪ من الثورة المالية الموجودة في فرنسا، تمتعت هذه الفئة بامتيازات كبيرة، حيث كانت معفية من كل أشكال الضرائب، وتملكوا معظم القطاعات الزراعية والتحويلية في فرنسا، كما استطاعوا السيطرة بشكل شبه كامل على أهم المراكز في الجيش واحتكروا المناصب السياسية، واستفادوا من نظام قضائي خاص بهم. يمكننا تقسيم هذه الفئة بدورها إلى قسمين أساسيين: نبلاء بالفطرة، ونبلاء بالاكتساب.

مثَّلت الفئة الأولى مِن النبلاء "الطبقة البرجوازية الكلاسيكية" المتشكلة من: النبلاء والفرسان والعساكر في التاريخ القر وسطي لأوروبا. ومعظم أفراد هذه الفئة كانوا من الحكام والولاة وقادة الجيش، بدأت تتآكل ثروة هذه الفئة وتتقزم إذا ما قارنها بالفئة الثانية من النبلاء وهم النبلاء بالاكتساب. أما الفذة الثانية ضمن هذه الطبقة وهم النبلاء بالاكتساب أو ما يصح أن نسميهم النبلاء بالمهنة فقد تحصَّلوا على ميزات النبلاء وامتيازاتهم وصفاتهم بشرائهم لهذه المنصب، وبما كانوا يقدمونه من أموال للقصر الملكي مقابل الحصول على هذا الامتياز. كان معظم أفراد هذه الفئة من كبار التجار والمثقفين، ويمثلون البرجوازية الصاعدة المتحكمة في الشأن السياسي في باريس؛ بسبب سيطرتهم على تمويل القصر بالديون كل مرة مقابل شروط مختلفة سنونها. استفاد النبلاء الجدد من تزايد ثرواتهم كل مرة بعد الأمات التي كانت تعيشها فرنسا سواد بسبب الحروب أو بسبب الجفاف.

ب. طبقة رجال الدين:

شكلت هذه الطبقة المستوى الثاني من النفوذ والسلطة داخل فرنسا قبيل الثورة الفرنسية، ولم تتجاوز نسبتها من ضمن مجموع الشعب الفرنسي ما نسبته ١.٥٪ من سكان فرنسا، وحظيت بدورها بمكانة كبيرة موروثة من الحقب التاريخية السابقة، وبالتحديد التي تعود في أصولها إلى مراحل تمكن المسيحية في المجتمع الأوروبي القديم. تنقسم هذه الطبقة بدورها إلى ثلاثة مجموعات كبرى لا تختلف من الناحية الإجمالية إلا في تفاصيل قليلة وفي حجم الثروة وهم: القساوسة، الرهبان، وكبار رجال الكنيسة.

تمتعت هذه الطبقة بدورها بسلطة سياسية ومالية كبيرة، على اعتبار تدخلها الثابت والمستمر في الحياة السياسية داخل القصر الملكي، وإسباغها للحكم بالصبغة الشرعية كل مرة؛ لذا كان الملوك كل مرة يؤكدون

د. جمال الدين سعيدي

على شرعيتهم في الحكم بما يحصلون عليهم من تزكيات الكنيسة وخضوع عموم الشعب لسلطاتها الروحية، استغل رجال الدين ما تتيحه لهم مكانتهم الروحية والاجتماعية لتحصيل ثروات ضخمة باسم الكنيسة والدين وباسم الرب، حيث استفادوا من إعفاءات ضريبية وتسهيلات مالية لم تتح لغيرهم من عموم الشعب، إلاَّ أنَّ ثروات هذه الطبقة لم تكن لتُقارن بثروات وأملاك الطبقة السابق ذكرها من النبلاء؛ لنجاح الأخيرة تجاريا في تنمية رؤوس أموالها بعكس طبقة رجال الدين الذين سعوا للحفاظ فقط على ما يمتلكونه. وحاولت هذه الطبقة الحفاظ على الوضع العام في فرنسا للحفاظ على امتيازاتها المختلفة، كما لم يتوان رجال الدين في استغلال عموم الشعب في العمل بنظام السخرة واستغلوا الجانب الديني في هذه الجزئية بشكل كبير جدا، الأمر الذي سيبرر موقف الثورة وعموم الشعب من هذه الطبقة في تاريخ فرنسا بعد الثورة.

ت. طبقة عموم الشعب:

شكلت هذه الطبقة باقي الشعب، أو كل الشعب بحيث شكلت ما مجمله ٩٨٪ من عموم الشعب الفرنسي، لم تحظ هذه الفئة بأي امتيازات مالية أو اجتماعية، بل وكانت الطبقة الملزمة بدفع جميع الأعباء والضرائب لخزينة القصر الملكي. ضمت الفلاحيين والحرفيين وصغار التجار والعمال في مختلف المهن.

كانت هذه الطبقة تتحمل جل تبعات الاختيارات السياسية والاقتصادية لطبقة النبلاء ورجال الدين، وكانت ترى في نفسها الحق الأكبر لكن الأضعف؛ بسبب القوانين والواقع المفروض عليها، كان معظم أفراد هذه الفئة يشعرون بلا عدالة توزيع الثروة والمناصب في فرنسا، إلا أن معظمهم كان مستكين لهذا الوضع، ما زاد في تذمرهم وسخطهم المباشر على الطبقات السابق ذكرها. عانت هذه الطبقة من الفقر وسوء التغذية والجهد الكبير نتيجة العمل المضني وقلة المداخيل.

إن الاطلاع على طبيعة النظام الطبقي الذي كان يحكم فرنسا قبل الثورة يجعل القارئ على يقين بأن أي حراك شعبي سيجد له من الناحية الاجتماعية ما يسهل نجاحه واحتضانه، بل إن الوضع الاجتماعي العام والمنافسة داخل الطبقات المترفة في حد ذاته سيجعل من توقع التفاف الطبقة المقهورة حول خيار التغير أمرا حتميا ومعقولا في السياق الطبيعي، وهو ما تجسد فعلا في مواقف هذه الطبقة ومختلف الطبقات من الثورة الفرنسية كما سيأتي.

4. سياسيا:

إن الوضع العام اقتصاديا واجتماعيا وفكريا كان بمثابة المحرك الأساسي الساعي إلى تغيير الوضع السياسي القائم في فرنسا أنذك، ذلك أنَّ التردي السياسي قد بلغ أعلى مستوياته، حيث أدت السلطة السياسية المطلقة التي كان يتمتع بها القصر الملكي في فرنسا إلى ما يشبه قتل إكلينيكي لأي حياة سياسية، وفشل الملك (لويس السادس عشر/**Louis XVI**) (١٧٧٤-١٧٩٢) صاحب الشخصية الضعيفة في إحداث أي تغيير مأمول من طرف الشعب الفرنسي، ورأى أن الامتيازات الدستورية المطلقة التي يتمتع بها تمنحه

جمال الدين سعيدي

الحرية الكاملة في التصرف وفق السياق الذي يريده، وزاد التردي السياسي والانغلاق العام؛ بسبب تدخل زوجة الملك لويس السادس عشر "ماري أنطوانيت/**Marie Antoinette**" في الشأن السياسي للقصر حتَّى اعتبرها الفرنسيون الحاكم الرئيسي للبلاد، كما أدى قيام "لويس السادس عشر" بإحاطة نفسه بمجموعة مِن المستشارين من الطبقة الأرستوقراطية من النبلاء ومن رجال الدين –الذين تمتعوا بامتيازات هائلة ورفضوا أي تغيير سياسي قد يؤدي إلى تراجع مكانتهم أو تزعزع امتيازاتهم– إلى توقف أي مسعى للتغير مهما كان صغيراً.

وباءت محاولات الإصلاح السياسي والاقتصادي التي قام بها أمثال وزير المالية جاك تيرغو (١٧٧٧–١٧٨١) بالفشل التام بسبب رفض النبلاء للإصلاحات التي كان يقوم بها، وفشل خليفته أيضا شارل ألكسندر دي كالون (١٧٨٧–١٧٨٨) في تحقيق أي تحول اقتصادي ما سرع ظهور وبروز عدد من الشخصيات من طبقة النبلاء الجدد أو البرجوازية الحديثة المتأثرة من الوضع الاقتصادي المتردي أمثال المحاميين: (جاك دانتون/**Georges Danton**) والذي مثَّل الطبقة المتوسطة وجناح الحداثة داخل الثورة الفرنسية في المراحل المتقدمة، بالإضافة إلى (ماكسيمليان روبسبير/**Maximilien Robespierre**) الذي تولى قيادة الجبهة الشعبية بعد الثورة الفرنسية وكان مسؤولا عن عدد من المجازر في حق المعارضين للثورة طالب كل من دانتون وروبيسير بإحداث تغيرات عميقة على الوضع السياسي في البلاد قبل سنة ١٧٨٩ إلا أن القصر الملكي في باريس لم يلتفت لمطالبهم وعدها تفاهات لا تستحق النظر.

إن الوضع العام اقتصاديا واجتماعيا وفكريا وحتى سياسيا كان متهيئا بالنسبة للطبقة العامة من الشعب ومحضرا بشكل واضح لقبول واحتضان والدفاع عن أي مطالب أو حركة سياسية قد تؤدي إلى تغيير الوضع القائم، وكانت هذه العوامل بمثابة القنابل الموقوتة التي تنتظر فقط من يشعل فتيلها للانفجار.

المبحث الثاني: الثورة الفرنسية والأحداث الكبرى

لم تنطلق الثورة الفرنسية في لحظة بذاتها، بل كانت عبارة عن سلسلة من تطور الأحداث بدأت برفض الطبقة العامة في اجتماعات الولايات العامة قبول عدد ممثليها على اعتبار أنها الطبقة الأهم والأكبر في البلاد لكنها لا تحظى إلا بعدد كراسي يسيرة لا تعبر عن حقيقتها الفعلية. لذا طالب ممثلو الطبقة الثالثة زيادة عدد ممثليهم في اجتماعات الولايات العامة. الأمر الذي كان ترفضه بشكل عام الطبقة الأرستوقراطية. الأمر الذي حمل ممثلو الطبقة العامة على البحث عن بديل تمثيلي آخر واتجه ممثلوهم إلى مضمار تنس قريب من مكان الاجتماعات جعلوا منه مكان التجمع الفعلي، وأقسم ممثلو الطبقة العامة على عدم تحركهم من مواضعه حتى يتم إقرار دستور فرنسي جديد يحقق للطبقة العامة بعض مطالبها. غير أن إصرار القصر والطبقة الأرستقراطية على التعامل باستخفاف مع مطالب ممثلي الطبقة العامة على تجمهر الآلاف من عامة الشعب مع ممثليهم والاتجاه لمهاجمة قصر/سجن الباستيل بسبب وجود أنباء عن توفر أطنان من القمح الصلب في مستودعات القصر، وفسرت بعض الدراسات الاتجاه إلى الباستيل بشكل من أشكال

د. زين الدين سعيدي

مواجهة الظلم الذي كان يجسده هذا السجن. باعتباره سجن خاص بالمعارضين السياسيين ورمزا للنظام الملكي المطلق.

لقد أدى تجمع عدد كبير من الفرنسيين إلى تزايد حماسهم وتجمهرهم في وجه السلطات الأمنية مطالبين إياها بإفساح المجال لهم لتحرير السجناء السياسيين الموجودين في سجن الباستيل، وقد رفض الحاكم في البداية تسليم القلعة/السجن وفي يوم ١٤ جويلية ١٧٨٩ نجح عدد من الثوار في الاستيلاء على القلعة وتحرير من فيها؛ ليصبح بذلك الباستيل معقلا للثوار ورمزا للثورة الفرنسية.

أدت هذه الأحداث إلى تسريع أحداث الثورة في فرنسا، حيث انتشرت أخبارها في كل أرجاء فرنسا، وتوافد الناس على باريس لشهود سقوط الباستيل الذي يمثل القصر الملكي، وأدى ذلك لدخول القصر الملكي في موجة من الشكوك وأحس حينها لويس السادس عشر وماري أنطوانيت بضعف موقفهم وقصور حركتهم. لذا حاولا الرحيل عن فرنسا، إلا أنَّهما لم ينجحا في ذلك واستطاع الثوار القبض عليهم أثناء ذلك وإعادتهم للقصر وفرض الإقامة الجبرية عليهما.

لقد أدى نجاح الثوار في اقتحام الباستيل إلى تمكن الطبقة العامة لأول مرة من إثبات وجدها، لذا حاول المثقفون من قادة الجموع إلى عدم الاكتفاء بذلك وعدم الوقوف عنده، وسعوا من خلال الصحف –التي سبق وأن ذكرنا بعضها– إلى تعريف جموع المواطنين بالفكر التنويري وما يحمله من شعارات مثل: العدل والمساواة والإخاء، كان بعضها هو منتهى أمل الجموع الكبير من المواطنين خاصة منها قضية المساواة والعدل التي كانت تطمح لها الحشود المختلفة.

إلا أن الموقف من الثورة وأفكارها داخل المجتمع الفرنسي قد اختلفت باختلاف عدد من العوامل، وعلى رأس هذه العوامل الظروف الاجتماعية لكل طبقة، ففي الوقت الذي شعرت فيه الطبقة العاملة والكادحة بالأمل والتطلع لما ستأتي به الثورة الفرنسية كانت طبقة النبلاء بالمهنة ينظرون إلى الثورة بقلق، إذ هم من جهة يتطلعون للمساواة بينهم وبين غيرهم من النبلاء بالفطرة ومن جهة ثانية يتوجسون من الاندفاع الكبير للطبقة العامة، ويخافون من الانتقام منهم باعتبارهم من أصحاب الثروات والميسورين ممن تحكموا بخيرات فرنسا بالنسبة للطبقة العامة. كما أثر الموقع الجغرافي الذي استقرت به الطبقة العامة في نظرتها للثورة وأفكارها، ففي الوقت الذي استبشرت ساكنة المدن الكبرى بمسار الثورة وأفكارها توجس أهل القرى والأرياف من أفكار الثورة وترددوا في دعمها. كما يمكننا أن نرى الاختلاف في النظر للثورة باختلاف المستوى التعليمي للأفراد، ففي الوقت الذي تحمس فيه المثقفون لها ودعوا إليه رفضها رجال الدين وخريجي الكنيسة لأنها كانت تمثل تهديدا مباشرا لمصالحهم ومكتسباتهم.

أما بالنسبة للطبقة الحاكمة من النبلاء ورجال الدين فإنهم لم يخفوا تماما معارضتها لها، باعتبار أنها تهدد كينونتهم ككل، بل ونجدهم منذ الأيام الأولى يحاولون الوقوف ضدها والتصدي لها، وهو ما كان له

د. نور الدين سعدي

عواقب وخيمة عليهم، حيث عمد الثوار إلى التخلص من كل من يهدد وجود الثورة أو يعمل على تقليص توسعها والوقوف ضدها.

أما بالنسبة للأنظمة الحاكمة في أوروبا فإنه بالرغم من وجود خلافات بيّنة بينها إلاَّ أنَّها ظلت متوافقة بشكل كبير حيال الموقف من الثورة الفرنسية وأفكارها، ذلك أن معظم الحكومات الغربية رأت في توسع وامتداد أفكار الثورة الفرنسية خطرا على وجودها، وخشيت من أن تكون مصطلحات مثل المساواة والعدالة مسامرا يدق نعشها ويبدد سيطرتها وسلطتها. وهو ما سمح بوجود تحالفات مختلفة ضد الثورة الفرنسية مثل التحالف الأول ضد الثورة الذي شكلته النمسا وبروسيا ضد فرنسا سنة ١٧٩٣ بدعوى طلب الاقتصاص ممن قام بإعدام الملك لويس السادس عشر. كما دخلت بريطانيا الحرب ضد فرنسا عام ١٧٩٣ للسبب نفسه. وتحديدا بعد إعلان الفرنسيين عن ميلاد الجمهورية والقضاء على النظام الملكي، الأمر الذي رأت فيه بريطانيا تهديدا مباشرا لمصالحها. وانضمت روسيا إلى التحالف الأوروبي ضد الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٨ بسبب تحرك الجيوش الفرنسية خارج حدودها ومخافة الأخيرة من زن يؤدي ذلك لثورة داخلية ضد سلطانها. إلا أنَّ التحالفات التي قامت بها الأنظمة الحاكمة في أوروبا ضد مبادئ وشعارات الثورة الفرنسية لم تستطع الوقوف ضد توسع تأثيرها وانتشار شعاراتها، حيث بدأت الكثير من الشعوب في تبني بعض ما كانت تحمله الثورة الفرنسية، ورأت شعوب مثل الشعب البولندي والشعب الإيطالي والشعب الإسباني أن الثورة ومبادئها من شأنها أن تخلصهم من الوضع الاقتصادي والسياسي البائس الذي يعايشونه. وزاد من نشر الثورة الفرنسية لميثاق حقوق الإنسان في (١٧٨٩/٨/٢٦) من تعاطف الشعوب الأوروبية مع مبادئ الثورة الفرنسية.

ثالثا: أفكار الثورة الفرنسية في أوروبا في القرن التاسع عشر

لقد ساهمت أفكار الثورة الفرنسية بشكل كبير في تغيير الأفكار التي كانت سائدة في أوروبا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر، حيث أضحت مبادئ مثل العدالة والمساواة شعارات جذابة في كامل أوروبا، لكن المساهمة الكبرى التي أحدثتها الثورة الفرنسية فعليا في أوروبا كانت في تكريس الفكر القومي في أوروبا في القرن التاسع عشر.

كما هيئت الثورة الفرنسية لأوَّل مرة المسار أمام المواطنين الأوروبيين لأجل المطالبة بالمشاركة في الحكم من خلال النظام الجمهوري الذي أقرته، وفتحها المجال أمام الطبقات العامة في كل أوروبا من أجل المشاركة في الانتخابات والمجالس المدنية وهو الأمر الذي كان حكرا على طبقة النبلاء ورجال الدين في أوروبا لأكثر من سبعة قرون كاملة.

كما أرست الثورة الفرنسية الأسس الأولى لحركة حقوق الإنسان في أوروبا وجعلت من حقوق الإنسان ركيزة أساسية في أوربا بداية مِن النصف الأول للقرن التاسع عشر. كما ساهمت الثورة بنشر أفكار العلمانية وحرية الفكر والابتعاد عن سلطة الكنيسة ورجال الدين.

د. نجم الدين سعيدي

وقد ألهمت أفكار الثورة الفرنسية العديد من المفكرين الذين انخرطوا في الدعاية لها سواء داخل أوروبا أو خارجها، فظهرت أفكار الثورة الفرنسية في كتابات الفيلسوف الألماني يوهان فخته (١٧٦٢-١٨١٤) فطور فلسفة قومية ألهمت بشكل كبير الحركة القومية الألمانية وساهمت في الإرهاصات الأولى للوحدة الألمانية. كما تأثَّر الفنان والفيلسوف الإيطالي جوزيبي مازيني (١٨٠٥-١٨٧٢) كثيرا بالأفكار التي أتت بها الثورة الفرنسية وعلى رأسها الأفكار القومية، فدعا في كتاباته وفي مسرحياته لالتفاف الإيطاليين حول قوميتهم، ودعا إلى تأسيس الوحدة الإيطالية وهو ما حملته وجسدته جمعية الكاربونيري الإيطالية. ويمكننا إجمال الأثر الكبير للثورة الفرنسية فيما يلي:

- تأثر المجتمعات الأوروبية بأفكار المساواة والعدل والإخاء.
- ظهور الجمعيات الداعمة لأفكار الثورة الفرنسية في إيطاليا وبروسيا.
- ظهور الاضطرابات الداخلية في أوروبا.
- موقف الأنظمة الحاكمة في أوروبا من امتداد أفكار الثورة الفرنسية.
- ظهور أفكار الثورة الفرنسية داخل أوروبا في صورة حركات احتجاجية.

د. خير الدين سعيدي

الموارد الثانوية للمحاضرة

أولا المصادر الكتابية

John Merriman - A History of Modern Europe_ From the Renaissance to the Present-W. W. Norton & Company (2009). **Chapter 12 (435–478).**

Davies, Norman - Europe_ A History (1996, Harper Perennial) Chapter IX (916-943).

ثانيا: مواقع الكترونية

https://fr.wikipedia.org/wiki/Journal_de_Paris

https://en.wikipedia.org/wiki/Category:Newspapers_published_in_France

https://en.wikipedia.org/wiki/Mercure_de_France

https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k44109501/f1.item.zoom

https://www.britannica.com/topic/coffee/Using-coffee

https://www.aljazeera.net/culture/2021/12/16/%D9%81%D9%8A%D9%84%D8%B3%D9%88%D9%81-%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A8%D8%AC%D9%91%D9%84-%D9%87%D9%84-%D9%86%D8%B4%D8%B1

https://www.britannica.com/biography/Jean-Jacques-Rousseau

https://www.britannica.com/event/French-Revolution

ثالثا: فيديوهات

https://www.youtube.com/watch?v=lTTvKwCylFY

https://www.youtube.com/watch?v=8qRZcXIODNU 1:50–7:44.

د. خير الدين سعيدي